العرب
الثلاثاء 2020/03/03
السنة 42 العدد 11635

«نيران صديقة» في مقتلة إدلب تدفع نحو جلاء الجيوش الأجنبية عن سوريا

علي الأمين
كاتب لبناني

لم تكن الضربة التي تلقتها الميليشيات التابعة لإيران في سوريا متوقعة (25 قتيلا بين إدلب وحلب)، بل بدت مباغتة لإيران وحزب الله، فبعد سقوط نحو 50 جنديا تركيا في سوريا خلال شهر فبراير الماضي، من ضمنهم استهداف قافلة عسكرية تركية أدى إلى مقتل أكثر من 30 جنديا تركيا، لم يكن حزب الله، ومن خلفه إيران، يتوقعان أن يكون الردّ التركي على مواقع عسكرية تابعة لإيران وميليشياتها، بسبب أن مسؤولية قتل الجنود الأتراك كانت تشير إلى روسيا والنظام السوري، خصوصا أن غارات جوّية هي التي حصدت العدد الأكبر من القتلى الأتراك، فيما إيران وحزب الله لا يستخدمان طائرات حربية كما هو معلوم في سوريا.

الضربة المعنوية التي تلقاها حزب الله بمقتل عشرة من محازبيه في الشمال السوري تتجاوز الضربة العسكرية، فالحزب الذي سارع بعد تلقيه الضربة إلى إيفاد المدير العام للأمن العام اللبناني اللواء عباس إبراهيم للقاء المسؤولين الأتراك، كشف في خطوته هذه عن ارتباكه ومحاولته الحدّ من الخسائر السياسية والعسكرية. فحسب المعلومات التي يتم تداولها من أوساط قريبة من حزب الله في بيروت، أن "ثمة تواطؤا تعرضت له الميليشيات الإيرانية كان طرفاه روسيا وتركيا في الحدّ الأدنى وربما الجيش السوري النظامي"، إذ أشارت هذه الأوساط إلى أن استهداف المواقع الإيرانية والتابعة لحزب الله، بدا وأنه بدل عن ردّ تركي على القوات الروسية، بحيث بدت القوات الإيرانية وميليشياتها الحلقة الأضعف التي تتيح للرئيس التركي رجب طيب أردوغان استعادة ماء الوجه بعد الضربة التي تعرض لها الجيش التركي ليل الخميس، وفي ظل إدراكه للكلفة التي قد يدفعها في حال استهدف القوات الروسية.

هل يكون فخ الشمال السوري الذي استدرج حزب الله إليه، الإعلان الرسمي لنهاية تورطه، وربما إيران، بحرب سورية جرّت المآسي على الشعب السوري أولا ولبنان ثانيا؟

الضربة المعنوية أيضا هي لكل ما كان المحور الإيراني يسعى إلى ترميمه في العلاقة مع تنظيم الإخوان المسلمين، إذ ليس خافيا على المتابعين ما يجري في منظومة علاقات المحور الإيراني، هو السعي الإيراني لإعادة ترميم العلاقة مع حزب الله بعد التصدعات التي أحدثها بين الطرفين تورطه في دعم نظام بشار الأسد في مواجهة الثورة السورية، ففي السنوات الأخيرة وتحت عناوين فلسطين والقدس والمقاومة، عمل حزب الله وعبر حركة حماس أولا، على إعادة ترميم علاقاتها مع النظام السوري في الحدّ الأدنى، فضلا عن الدعوات التي تلقتها قيادات من هذه الحركة لزيارة إيران بشكل لافت في السنوات الأخيرة، ومن خلال هذه العلاقة بدأت جهات إيرانية رسمية بزيارة تركيا في سبيل إعادة بناء العلاقة بين إيران وتنظيم الإخوان، مستغلة العلاقات السيّئة لهذا التنظيم مع معظم الدول العربية.

من هنا كانت صدمة حزب الله بعد استهدافه من قبل الجيش التركي، لاسيما أن هذه الضربة ترافقت مع عمليات تهجير لمئات الآلاف من المواطنين السوريين من إدلب ومن ريف حلب، في ظل التمدد العسكري للنظام السوري بدعم من إيران ومن روسيا، وتجدر الإشارة إلى أن هذه المناطق هي أيضا مناطق نزوح للملايين من السوريين الذين فروا من بطش النظام السوري وحلفائه في السنوات الأخيرة وقدم جزء منهم في عمليات شهيرة تم خلالها نقل عشرات الآلاف من المقاتلين من مناطق دمشق وريفها ومناطق الزبداني والقلمون ومن بلدة القصير على الحدود مع لبنان.

لم يكن أمام المشروع الإيراني في المنطقة العربية في السعي لكسر العزلة التي يعيشها على المستوى العربي والإسلامي، إلا ترميم العلاقة مع الإسلام السياسي ومحاولة تغطية تمدده في العالم العربي من خلال ترميم العلاقة مع الإخوان، حيث عمد حزب الله إلى العمل على فتح القنوات مع التنظيم وتعزيزها، وعملت القيادة الإيرانية على استثمار علاقاتها مع تركيا وقطر في سبيل تحقيق هذا الخرق، ورغم الجهود التي بُذلت على هذا الصعيد فإن عودة المياه إلى مجاريها بقيت متقطعة وأسيرة نهر الدماء في سوريا.

كان الجيش السوري عرضة لضربات تركية أدت إلى خسائر بشرية ومادية وعسكرية، إلا أن الضربة القاصمة التي يصعب تعويضها كانت الضربة التركية، ذلك أنّ الترحيب بهذه الضربة من قبل السوريين، خاصة اللاجئين في تركيا، أظهر وجود مسافة بين الشعب السوري من جهة، والوجود الإيراني في سوريا من جهة أخرى.

اللواء عباس إبراهيم، وهو الذي يتولى عادة نقل رسائل من الدولة اللبنانية ومن حزب الله إلى جهات مخابراتية عربية وغربية، توجه إلى تركيا من أجل إيجاد مخارج تحول دون تدهور العلاقة بين حزب الله وتركيا، في لحظة سياسية تلمس من خلالها الحزب أنه وقع في فخ نُصبَ له بإحكام، فخ لم يكن الروس بعيدون عنه ولم تكن تركيا غير مرحبة به، وأظهر ضعف إيران في المعادلة السورية.

شهدت مدينة القصير الإعلان العسكري عن بدء دخول حزب الله في الحرب السورية، وقد كلف ذلك حزب الله عشرات القتلى الذين وقعوا في أفخاخ من الألغام نصبت على مداخل المدينة وفي أنفاقها، فهل يكون فخ الشمال السوري الذي استدرج حزب الله إليه، الإعلان الرسمي والعسكري لنهاية تورطه، وربما إيران، في حرب سورية جرّت المآسي على الشعب السوري أولا ولبنان ثانيا؟

إيران الحائرة في سوريا

بهاء العوام
صحافي سوري

حتى الأمس القريب كانت إيران الضامن الثالث، إلى جانب روسيا وتركيا، في تفاهمات أستانة وسوتشي حول سوريا. لكن ما يحدث اليوم على الأرض في إدلب، يقول إن الحوار بشأن المناطق الشمالية غرب نهر الفرات بات محصوراً بين أنقرة وموسكو فقط. وقد أقصيت منه طهران، كما أقصيت من قبل في مفاوضات مناطق شرق الفرات، التي جلس على طاولتها الأتراك والروس والأميركيون.

يعلم الجميع أن التفويض الذي منحه الأميركيون لطهران في سوريا قد سحبه الرئيس دونالد ترامب بعد انسحابه من الاتفاق النووي الإيراني عام 2018. منذ ذلك الوقت والقوات الإيرانية في سوريا تتحرك بخوف شديد من استهداف إسرائيلي أو مجهول على طول البلاد وعرضها. كما تتحرك بالحدود الدنيا من الإمكانات التي تكاد تنضب بسبب الحصار الذي تعيشه طهران في ظل العقوبات الأميركية.

كل ذلك بقي نظام الخميني قادرا على احتوائه والتعامل معه، حتى قتل قائد فيلق القدس في الحرس الثوري اللواء الإيراني قاسم سليماني. غاب عراب الميدان السوري وفقدت معه طهران البوصلة التي ترشد أذرعها العسكرية هناك. أصبح الأمر يخضع إلى اجتهادات أكثر مما يعتمد على التخطيط، ولم يعد هناك من يملي الأوامر الإيرانية المسموعة على قادة الجبهات للجيش السوري وحزب الله.

كان سليماني يمسك بزمام الأمور في الميدان السوري، وكان يمتلك من المعرفة في تشعباته ما يجعله قادرا على اتخاذ القرارات المصيرية التي تحمي مصالح إيران ومكتسباتها. لا يحتاج سليماني إلى الرجوع لطهران في كل صغيرة وكبيرة، بل كان يخطط ويوزع المهام وينفذ بيده أحياناً.

وباختصار كان في سوريا يمسك الأرض بما يخلق توازنا بين طهران وموسكو التي تسيطر على السماء.

التصعيد الحالي في إدلب وريفها هو أول منعطف تمر به إيران في سوريا دون سليماني. هي حائرة في التعامل معه كثيرا. ويبدو أنها، بشكل أو بآخر، لا تملك إجابة عن أسئلة كثيرة من قبيل أين يجب أن تقف في الحرب المستعرة شمال غرب سوريا؟ من يجب أن تساند؟ وما هو سقف المساندة؟ وما هو مصير حضورها العسكري في سوريا على ضوء متغيرات كثيرة؟

الأزمات التي تعيشها إيران بين مرض كورونا والعقوبات الاقتصادية والانقسام بين الإصلاحيين والمحافظين في الداخل، وبين الثورات الشعبية التي تواجه نفوذها في لبنان والعراق، والاستهداف الإسرائيلي لقواتها في سوريا؛ كلها تشكل ضغطا على السياسة الخارجية الإيرانية، يجعلها تعاني تخبطا في التعامل مع أزمة منطقة خفض التصعيد التي حددتها مع الروس والأتراك في إدلب قبل أعوام.

بالنسبة إلى الروس والأتراك تبدو الحيرة الإيرانية واضحة وهي تلائمهم كثيرا. لذلك هم يعززونها عبر مواقف متضاربة وإشارات متناقضة بشأن دور طهران في ما يجري على الأرض. وأمام هذه الضبابية في المشهد يبادر الرئيس الإيراني حسن روحاني بالدعوة إلى قمة ثلاثية تجمعه مع نظيريه التركي والسوري لبحث الأزمة، فتردّ أنقرة بقصف إيرانيين كانوا يقاتلون إلى جانب الجيش السوري في ريف إدلب.

ربما يكون هذا القصف هو الرسالة الأكثر وضوحا التي تلقتها إيران بشأن إقصائها عن مفاوضات إدلب. والرسالة الثانية جاءت عبر موسكو من خلال إجراء ترتيبات لقمة ثنائية وليست ثلاثية حول إدلب، تجمع فقط الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ونظيره التركي رجب طيب أردوغان. وطبعا يشارك الرئيسان أفكارهما مع الأوروبيين والأميركيين الذين يحاولون أيضاً التدخل في مسار الأحداث.

يتفق الروس والأتراك ضمنيا على أن طاولة المفاوضات هذه المرة ليس بالضرورة أن تضم إيران، أو على الأقل هي المرة الأولى التي يلتقي فيها الرئيسان التركي والروسي كي يرسما الخارطة الجديدة لإدلب ومحيطها. لكلّ أسبابه في تجنب إشراك الإيرانيين في القمة المقبلة، لكن غياب طهران لا يعني القطيعة بينها وبين أنقرة أو موسكو. فلا تزال المصلحة تجمع الدول الثلاث في سوريا.

أين يجب أن تقف إيران في الحرب المستعرة شمال غربي سوريا؟ من يجب أن تساند؟ وما هو سقف المساندة؟ وما هو مصير حضورها العسكري في سوريا في ضوء متغيرات كثيرة؟

الدبلوماسية التي يتحدث بها الروس والأتراك عن إيران، تدلل بوضوح على تمسكهم بالإبقاء على شعرة معاوية مع طهران. لا يفضل أي منهم القطيعة معها لأنه يستعد لجميع الاحتمالات، إضافة إلى أن التضحية بإيران أو مخاصمتها في سوريا تصبان في مصلحة دولة واحدة هي الولايات المتحدة، وهي لم تقرر بعد إن كانت ستقف على الحياد في إدلب أم ستساند تركيا الشريكة في الناتو.

السياسة الرمادية للأتراك والروس في التعامل مع إيران، خاصة في أزمة إدلب، زادت من إرباك نظام طهران. لم يعد الإيرانيون يعرفون ماذا ينتظرهم في المفاوضات بين موسكو وأنقرة، ولا يبدو ترقب النتائج والتعامل معها لاحقا رهانا جيدا. ولكن طهران لا تقدر أن تفرض نفسها على طاولة المفاوضات بين الروس والأتراك لأنها باتت الطرف الأضعف ميدانيا، وأبرز أسباب هذا هو مقتل سليماني.

الخيار الوحيد أمام إيران الحائرة الآن هو القتال على جبهات الجيش السوري كي تمنع انهيارها. صحيح أن هذه المهمة باتت أصعب بكثير بعد مقتل سليماني، وبعد أن أصبح تدخل الطيران الروسي في المعارك على الأرض يتناغم مع إيقاع مفاوضات الأروقة المغلقة مع أنقرة. إلا أن التخلي عن دمشق وجيشها الآن، يعني ببساطة إطلاق نظام الخميني النار على قدميه وقبوله بالخسارة في سوريا.

يوم تنتهي مسيرة الشقاء السوري

فاروق يوسف
كاتب عراقي

لا تزال هناك ملايين أخرى من السوريين على استعداد لبدء مسيرات نزوح جديدة في اتجاه أوروبا. تسع سنوات من الحرب ولم تتضح الصورة بعد. ما الذي يريده العالم من سوريا؟ سؤال يشبه لغما.

فالعالم الذي شرعن تدخله في سوريا لم يسأل السوريين عما يريدونه. فيما اكتفى السوريون برفع شعارات تخطتها الوقائع، صار الأمل بالنسبة لملايين السوريين يقع خارج سوريا لا داخلها. لذلك فإنهم يشعرون أن جنون رجب طيب أردوغان يناسبهم. الرئيس التركي يبتز أوروبا بهم. فهم بالنسبة له مجرد بضاعة. تلك صفة لا تستفزهم بعد أن أداروا ظهورهم لمنازلهم المهدمة.

لم تعد سوريا بالنسبة للسوريين مكانا آمنا، بالرغم من أنها كانت توصف قبل سنوات باعتبارها أكثر الأماكن السياحية أمانا في العالم. سوريا الحقيقية ذهبت إلى ذاكرة أغلقت أبوابها على الأوجاع الأخيرة لبشر هائمين، سيكون التيه ملاذهم الأسطوري.

كما لو أن الأقدام كانت على أهبة الاستعداد للحركة، فما إن فتح أردوغان حدود تركيا مع الاتحاد الأوروبي حتى كانت شرطة الحدود اليونانية على موعد مع موجة جديدة من المشائين السوريين.

لا أحد يريد أن يفهم أن أردوغان إنما يؤدي دورا قذرا في اتجاهين. فهو من جهة يريد أن يحصل على موطئ قدم في سوريا، ومن جهة أخرى يحاول أن يجبي الضرائب من أوروبا نظير ضبطه لحركة النزوح وتحكّمه بملف اللاجئين السوريين الذين تفضل أوروبا أن يبقوا تحت السيطرة. هناك تلازم بين المسارين.

استمرار الحرب في سوريا من خلال التدخل التركي، المباشر وغير المباشر، يمثل ضمانة لعدم عودة اللاجئين السوريين في تركيا إلى سوريا. عن طريق ذلك يتعامل أردوغان براحة مع الأوروبيين الذين يخضعون لشروطه.

ولكن الضربة السورية التي أدت إلى مقتل ثلاثين جنديا تركيا أصابته بالجنون، فصار يفكر في الانتقام في اتجاهات مختلفة. ينتقم من روسيا لأنها خذلته حين أوهمته بأن قواته لن تتعرض للهجوم. ينتقم من الأوروبيين الذين تركوه وحيدا في مواجهة هجرة متوقعة لمليون إنسان من إدلب. وأخيرا فإنه ينتقم من الولايات المتحدة التي لم تنظر إلى تدخله في سوريا بعين مرحبة، بعد أن اكتشفت أن لا جدوى من تدخلها.

في كل الأحوال فإن أردوغان يهدد العالم بالسوريين. الرجل الذي استباح سوريا أباح لنفسه أن يكون متحدثا باسم المعذبين السوريين الذين سيلقي بهم في البحر على قوارب مطاطية أو يتركهم يمشون إلى ما شاء قدرهم.

يعرف أردوغان أن مسيرة الشقاء السوري يمكن أن تبدأ بضغطة زر. أليس هناك من حل عربي لتلك المعضلة التي تنطوي على الكثير من الإذلال؟

صار واضحا أن أردوغان يلعب بورقة سوريا على حساب السوريين، في الوقت الذي صارت فيه الحكومة السورية على يقين من أن الشعب المسؤولة عنه صار أشبه ببضاعة تُعرض في مزاد. لذلك فإن تدخلا من جامعة الدول العربية، أو عدد من الدول العربية، يمكنه أن يعيد الأمور إلى سويتها.

ليس من المعقول أن يكون أردوغان وصيّا على السوريين الذين لا يعرف عنهم شيئا. وليس مقبولا ألا تملك الدول العربية تصورا عن مستقبل سوريا.

سوريا الحقيقية ليست نازحيها ولا مخيماتهم ولا قوارب الموت ولا صور الحفاة المنتظرين عند أسلاك الحدود. تلك صور واقعية تخون الحقيقة.

لا يزال في إمكان النظام أن يقدم خدمة لسوريا قبل زواله. أن يفشل خطة أردوغان في إدلب.

سيكون من الصعب على أردوغان أن يمارس لعبته في إدلب إذا ما شعر أن هناك دعما عربيا لسوريا من أجل الحفاظ على سيادتها.

يومها تنتهي مسيرة الشقاء السوري ويضرب أردوغان رأسه بالحائط الأوروبي.